

تجليات الاتجاه الصوفي في الكتابة الشعرية لدى أدونيس

Illustrations of Sufi's Direction in Poetry Writing by Adonis

1سعيد بكير*

جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف، (الجزائر). saidbakir2@gmail.com

تاريخ الإرسال 2024-08-25 تاريخ القبول 2024-10-31 تاريخ النشر 2025-03-16

ملخص:

يشكل المنحى الصوفي منعطفًا مهمًا في الكتابة الشعرية لدى أدونيس، إذ يعتبر أطول مراحل حياته الشعرية، اكتسبه من وعي ثوري فطري قديم، ومن مصدرين أساسيين آخرين هما: التراث العربي الصوفي القديم، والسرورية الغربية، ولعل اجتماع هذه العوامل الثلاثة ساعد كثيرًا في تقوية هذه المرحلة من حياته وبزوغها، كما ساعد أيضًا على إظهار تميز لغة الشاعر، التي بنيت على الغموض وكثرة السؤال والحيرة، في بحثه الدائم عن التحرر واللامحدودية، وهذا ما وجدته أدونيس حاضرًا في العالم الصوفي الواسع.

الكلمات المفتاحية: الثوري، الصوفية، الحيرة، كثرة السؤال، الكشف.

Abstract: The Sufi trend has a significant shift in poetry writing by Adonis, as it is considered as the longest period of his poetic life; he acquired it through an ancient innate revolutionary consciousness. In addition to two other primary sources which are: the old Sufi Arab heritage and the western Surrealism. The convergence of these three factors might have substantially strengthened this phase of his life and highlighted the uniqueness of the poet's language, which was built on confusion, ambiguity and question abundance in his constant search for emancipation and limitlessness, this is what Adonis discovered in the vast Sufi world.

Keywords: Revolutionary, Sufism, Confusion, Question Abundance, Detection

مقدمة:

يعد أدونيس من أوائل الشعراء المعاصرين، الذين مارسوا تجربة التجريب في الكتابة الشعرية المعاصرة، فمنذ بداية مشواره الشعري الممتد من قصيدة "الفراغ" التي كتبها سنة 1945م إلى يومنا هذا ظلّ يدعم مشروعه الحدائثي، ويدافع عنه بشراسة محاولاً إدخال المفاهيم الجديدة التي يراها مناسبة للقصيدة الجديدة، ولقد أسس هذا المشروع بداية على فكرة قوامها الرفض والتمرد على السائد.

ومنذ بزوغ تجربته الشعرية أو النقدية -على حد سواء- في سماء الشعر العربي، أرسل أدونيس ومن معه من رواد الحداثة كيوسف الخال وخليل حاوي وصليبا... وغيرهم نصوصاً شعرية تثور على نظام القصيدة القديم؛ ولعلّ أول تجربة شاهدة على ميلاد مشروعه "الثابت والمتحول"، وهي رسالة دكتوراه محتواها يساند دائماً الحركات الثورية الراضة لعرف معين مثل: الشعراء الصعاليك، أو أبو تمام أو أبو نواس، أو المعتزلة أو المتصوفة... الخ.

فلقد كان يرى علي أحمد سعيد في الأصول والقواعد القديمة قيوداً لا بد من تحطيمها، حتى تقوم الكتابة الجديدة، ومسافة هذا النضال من أجل التعبير طويلة بدأت من سوريا واستقرت في لبنان زمناً طويلاً، ثم انتشرت وعمّت في الساحة العربية، ولعلّ "مجلة شعر اللبنانية" من أهم المساهمين في نشر هذا التيار، وواصلت مسيرتها مجلة "مواقف".

إنّ نقطة التحول الأولى التي اشتغل عليها دعاة التجديد، هي تغيير مفهوم الشعر أولاً، وتحويله عن مساره القديم القائم على الوزن والقافية، كما عمل أولئك أيضاً على تغيير وظيفة الشاعر والنظرة إلى القصيدة عامّة، ومن هذا المنطلق أصبح الشعر سؤالاً يلّمح ولا يصرّح، ويدفع إلى مزيد من السؤال، وأمّا رسالة الشعر فلم تقف عند حدود الإبلاغ والإعلام وإثماً تعدتها إلى أبعد حدٍ، فعلى الشاعر المجدد أن يطوّع لغة جديدة تحمل حرارة للكلمة، تتماشى واللامحدودية والحرية، فتلبس القصيدة شعرية لا تنبعث من الوزن والقافية، بل من السؤال المستمر.

وكان من نتائج هذا المجهودات المتواصلة ولادة أشكال كثيرة من الكتابة منها- على سبيل المثال لا الحصر- الشعر الحر قصيدة النثر، القصيدة الفلاش... وغيرها، وأصبح للشاعر وسائل جديدة للكتابة كالأسطورة، والبياض، واستدعاء الشخصيات الصوفية، وهذا ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع "تجليات الاتجاه الصوفي في الكتابة الشعرية لدى أدونيس"، ويمكن طرح إشكاليته على النحو الآتي:

- كيف استغل أدونيس الصوفية في كتاباته الشعرية؟

- وكيف كانت نظره إليها؟

وهذه الإشكالية يمكن الإجابة عنها بالخطة الآتية:

- مقدمة

- لمحة عن مفهوم التصوف.

- أدونيس الشاعر الثوري.

- أدونيس الشاعر الصوفي.

- لمحة عن مفهوم التصوف:

إنّ الحديث عن التصوف ومفهومه لدى أهل الاختصاص، موضوع متشعب الرؤى، وذلك بالنظر إلى زوايا معالجته، فهو كما قال أبو حيان التوحيدي يدخل ضمن إطار الكلام على الكلام، وهذا صعب لأنّ الكلام يدور على نفسه، ويلتبس بعضه ببعض¹.

فالكلام على التصوف في شعر أدونيس، يثير أسئلة عديدة خاصة وأن صلة التصوف بالشعر لاحقة لصلة التصوف بالدين، فيقوم التصوف الزهد وتسامي الروح، ومحاولة الوصول بالروح إلى سماء الطهر عن طريق الخوض في الباطن؛ مع رفض للمادة؛ وحياة الترف، وهذه فكرة اشتركت فيها معظم الأمم على اختلاف الدين* . وهذا الرأي المرتبط بالدين قال به كثير من الباحثين أمثال نيكلسون المستشرق الانجليزي: "إنّ بذور التصوف الأولى ظهرت في نزعات الزهد القويّة التي سادت العالم الإسلامي في القرن الأوّل الهجري، وترجع العوامل الرئيسية في ظهور نزعة الزهد إلى المبالغة في الشعور بالخطيئة"².

وقبل الحديث عن التصوف ومفهومه عند أدونيس أشير أولاً إلى نقطة مهمّة، وهي أنّ هناك رابط مهم بين التصوف والشعر فكلاهما بحاجة إلى الآخر خاصّة وأنّ اللغة الصوفية أصبحت أداة من أدوات اللغة الشعريّة "فالتصوف يحيل على الفنّ، ويلتقي بجوهر الشعر"³، والشعر أيضاً لجأ في كثير من المواطن إلى التراث الصوفي، ووظّفه في بناء صوره، وربما استدعى الشاعر بعض الشخصيات الصوفية وأسقط عليها رسالته. مقل: الحلاج، الخضر،... وغيرهم، فالتجربة الصوفية عامل مهم يجعل من "النص الصوفي ينطوي على ملامح صوفية، تتعلق بطبيعة اللغة فيه، وآلية عملها"⁴.

إنّ نقطة التقاء الشعر العربي المعاصر مع التصوف بدأت من داخل الرومانسية مع انفتاح الشعراء على الخطاب الصوفي⁵. وأمّا المدخل الذي سلكه أدونيس للولوج إلى التصوف فكان مزدوجاً: شق عربي تمثل في اطلاعه على مؤلفات النّفري وبن عربي، والسهوردي.. الخ، وهذا ما نقله عنه صقر أبو فخر حيث قال: "أمّا المكزون السنجاري، فله أثر كبير ولاسيما في موضوع الظاهر والباطن... ولا أتحدث عن النّفري الذي هو الآن من المقروئين جدّاً، ولا عن محي الدين بن عربي هذا الرجل العظيم"⁶.

وأمّا الشقّ الغربي، فمبعثه السوربالية، فهو يرى أنّ الصوفية هي سوربالية بامتياز⁷، ومن أوجه تأثر أدونيس بالصوفية تسميته لمجلته بـ "مجلة المواقف" نسبة لمواقف النّفري، وكذلك كتابه المعنون بالكتاب، وديوانه الشعري "مفرد بصيغة الجمع" نسبة إلى موضوع الليلة الثلاثين من كتاب الإمتاع والمؤانسة المعنون بـ "الواحد في صيغة الجمع" وكذلك توظيفه للمصطلح الصوفي مثل مصطلح "كتاب" في عنوان ديوانه "كتاب التحولات والمجرة في أقاليم الليل والنهار".

وكذلك السفر، الحيرة، الكشف والإشراق... وغيرها.

وتبنى الصوفيّة على أربع صفات هي:

- 1- اللاصوفية (L'ineffabilité)، وتعني أنّ للصوفي حالات روحية لا يقدر الكلام أن يصفها.
- 2- المعرفة (Neotique): وهي النفاذ إلى أعماق حقيقة لم يسبرها العقل من قبل.
- 3- الموقوتية (La nature transitoire): وتعني أنّ هذه الحالات لا تدوم طويلاً.

4- الانفعالية (Passivité): حالات لا تكاد تنشأ حتى يشعر صاحبها أنه فقد إرادته وأنه معتقل أو مأخوذ بقوة عليا... وهذه الحالات تقرب من النبوة والانخطاف والكتابة الآلية أو الإملاء⁸. ومن هنا يمكن القول بأن أدونيس مأخوذ بهذا العالم الخفي؛ يسعى دائماً لكشف أغواره وعوالمه المتناقضة، وعليه فالوفاة الصوفي معين مهم للكتابة الشعرية عند أدونيس.

- أدونيس الشاعر الثوري:

إن المتتبع لمسيرة أدونيس الشعرية، يحرصها في مرحلتين مهمتين هما: المرحلة الثورية والمرحلة الصوفية، دون ذكر المرحلة الرومانسية، التي هي بداية لكل شاعر، وأما المرحلة الثورية فهي أوسع محطة شغل بها فكره، وجند فيها قلمه للتغيير، وأخذت نصف عمره وإن كان للثورة معنى الغضب لغة، فإن أدونيس ترجم هذا الغضب إلى تمرد مستمر حتى يهدم لكي يبني ويكسر لكي يجدد، ووضع الشعر والثورة في ميزان واحد، حيث قال: "إن الشعر في ذاته ثوري، بوصفه حدثاً إبداعياً، وهو ثورة داخل اللغة من حيث أنه يجددها، وثورة في الواقع نفسه من حيث أنه يرى إليه رؤية تجديدية، ومن حيث أنه يغير بتجديده اللغة صورة الواقع، أي العلاقات القائمة بين الأشياء والكلمات، وبينها وبين الإنسان، وهو بذلك ثورة في وعي الإنسان"⁹.

بعد هذا النوع من الثورة محبوباً لدى أدونيس، لأن الثورة تنبع من صلبه ومن داخله، عكس الشعر من أجل الثورة، الذي يقف عند حدود الوصف الخارجي، وفي هذا السياق يقول: "الثورة ليست القبض على السطح، بل القبض على الجوهر... إنها الانتقال من المغلق إلى المفتوح، من المحدود إلى اللانهائي، إنها ليست حركة تحرير "خارج" الإنسان بقدر ما هي حركة تحرير "داخل" الإنسان"¹⁰.

من هذا المنطلق يمكن فهم الثورة عند أدونيس في أنها لغة جديدة مبتدعة تسعى إلى خلق وعي جديد لدى الإنسان "تاريخ الشعر في مستقبله، في ثورته من أجل صياغة لغة الثورات والحروب القادمة، وهو بهذا المعنى إشارة لمسار ثقافي لن يأخذ معناه الحقيقي، إلا حين يكتب لغة الصراعات وبأفق مفتوح، ويشارك بذلك في تأسيس لغة جديدة"¹¹.

وهذا الفهم، وظفه في كثير من المواقف في شعره مثل:

شُدَّ يا ثُرُ، يا عاصفَ زَنَدِكَ

فالأعالي تشتهي، تعشقُ بَنَدَكَ

ما هو العالم بعدك¹²

ربط الثورة في هذا المشهد بالوصف والعلو، وهي مفردات تحمل معنى القوة والحزم، والغاية هي الصعود إلى الأعلى لتغيير وجه العالم، وفي مقطع آخر يقول:

يولد التاريخ في شمعة صدر

في انتفاضة¹³

إنّ صنع التاريخ - في نظره - مقرون بالرفض وسمو الهمة والانتفاضة الراضية، ولا يصنعه الإنسان الراضي، الذي لا طموح له، والملاحظ أنّ اختياره للألفاظ يوحي بتمسك الشاعر بمبدئه الثوري، وهذه دعوة صريحة منه لغيره من الشعراء أن يكونوا كذلك، من أجل تغيير واقع ميت، "فليس شاعراً عربياً من لا يكون ثائراً"¹⁴.
والخلاصة ان الثورة في منطق شاعر لا بد منه في هذا العصر حتى لا تبقى اللغة والفكر متعلقين بأفكار قديمة لا تتناسب وظروف العيش الحالي، فالطليعة لا تكون بالثابت، وإنما يربطها بالمتحول الراغب في صعود الجبال؛ وهذا يظهر تعامل أدونيس مع الثورة بحساسية مفرطة، لا تحاول تغيير الواقع فحسب بل تغيير منطق التفكير أيضاً.

- أدونيس الشاعر الصوفي:

تمثل اللغة الصوفية مخزوناً مهماً وأداة فاعلة من الأدوات التي اعتمدها أدونيس في كتابته الشعرية، خاصة في المرحلتين: الثورية والصوفية من حياته، وإنّ نظرة عجل في لغته الشعرية توحى للقارئ بأنه مأخوذ بهذا العالم الواسع، حيث جعل الموروث الصوفي معيناً يستمد منه طاقته في التعبير، وبذلك تميّز خطابه الشعري بالتنوع وتعدد الدلالات، فخرج من الاستعمال العادي للفظ إلى أفق جديد في الاستعمال، فهو لم يقف عند حدود الصوفية بمعناها العام، ولكنه صوفيته تميّزت بالجنوح نحو الأحلام واللاوعي¹⁵.
لقد برزت ملامح الكتابة الصوفية، عند أدونيس في كثير من المواطن في رحلته الشعرية، ففي قصيدة "الضياع" يقول:

الضياع الضياع....
الضياع يُخلّصنا ويقود خُطانا
والضياع
ألق وسواهُ القناع؛
والضياع توخّدا بسواناً¹⁶

وفي موطن آخر، يقول:

والجنون الذي قادني لا يزال أمير الجنون¹⁷

في هذه الأسطر الشعرية، وفي غيرها من المواطن في قصائده، وظّف أدونيس مجموعة من المصطلحات الصوفية مثل: الضياع، الجنون، القناع....، ولكنه في هذا الأخذ ابتعد عن المعنى العادي للمصطلح، وحمله معانٍ جديدة ودلالات مشحونة بإيحاءات مختلفة يريد بها الشاعر مثل: السفر الدائم، الغربة، الجنون الإرادي المفتعل... وغيرها.

وعلى العموم، فإن استعمال المصطلح الصوفي في كتابات أدونيس كثر وتنوع، فمن الممكن أن يجده القارئ على الأوجه الآتية:

1- عناوين للقصائد والمؤلفات مثل:

- قصيدة "وحدة"، قصيدة "الضياع"، قصيدة "أول الجنون"...
- ديوان "مفرد بصيغة الجمع"، ديوان "كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار".

المؤلفات مثل:

- "الكتاب"، "الكتاب الخطاب الحجاب"، ومجلات مثل: "مجلة المواقف".
- إضافة إلى الاستعمال الشعري للمصطلح الصوفي، نجح أدونيس في المزاوجة بين التجريبتين: الصوفية والشعرية، وخلق لنفسه لغة وفضاءً جديدين مملوئين بالغامض والمتناقض، ومن أكثر المصطلحات شيوعاً في شعره: الجنون، الغربة، تأنيث المكان كصفة؛ بالإضافة إلى استدعاء الشخصيات الصوفية البارزة واستغلالها في محطاته الشعرية. ومن النماذج الشعرية الدالة على ذلك قوله في ديوان "أغاني مهيار الدمشقي":

يا كوكباً يطلع من بغداد

مُحملاً بالشعر والميلاد

يا ريشةً مسمومة خضراء¹⁸

في هذا المقطع يلتقي أدونيس بشخصيته مهمّة في عالم التصوف وهو "الحلاج" فأحيى شخصه، وجمل به لغته ونعته بشاعر الأسرار.

وأما النموذج الثاني، فلجأ إلى صفة "تأنيث المكان" وهي صفة تجسد تماهي الجسد بالمكان حيث يقول:

يا امرأة القبول

يا امرأة الضوضاء الدهول

يا امرأة مليئة العروق بالغابات والوصول¹⁹

وأما النموذج الثالث استعماله لمصطلح الجنون في قصائد متعددة مثل "رياح الجنون"، "الاجتياح"، و "أول الجنون" مع العلم أنّ جنونه كان إراديّاً وليس حقيقياً كما هو معروف.

خاتمة:

بعد التعرض لموضوع "تحليلات الاتجاه الصوفي في الكتابة الشعرية لدى أدونيس"، يمكن تسجيل النتائج الآتية:

- إنَّ أهم شيء يشدُّ أدونيس إلى عالم التصوف، كونه حركة تخالف المألوف خارجة عن العادة والثابت، ومعلوم أنَّه يساند كلَّ ثوري، مغرَّ، داعٍ إلى التحرر.
- لم يكن أدونيس صوفياً بالتجربة الفعلية، وإنما بدأ سوراليا وانتهى صوفياً، باطلاعه على الأعلام والتراث الصوفي القديم في الحضارتين العربية والغربية.
- الرافد الصوفي رافد مهم لأدونيس، يستقي منه صوره وشخصياته ورؤاه، أحسن توظيفه لخدمة شعره، ولكنه يتجاهل في بعض المواطن مصادره، ولا يشير إليها.
- استعمال أدونيس للمصطلح الصوفي، صادر عن وعي وثقافة كبيرة، تنبئ عن وعي مصحوب بتسطير الأهداف فهو لا يكتب من دون غايات بين السطور.

الهوامش:

- ¹- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثاني، تح: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، دت، ص 131.
- * ومن ذلك فكرة الغنوصة: إحدى الفرق المسيحية، وتمثل تياراً تاريخياً فلسفياً مسيحياً (3.2م)، ويقصد بها المعرفة الملهمه اللدنية (العرفان) الناتجة عن الاستبطان والحدس لا عن طريق العقل. قاموس أساطير العالم، ص 47.
- ²- عبد الحميد جيدة، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، ط1، بيروت، لبنان، 1980، ص 96.
- ³- وفيق سلطين، الشعر والتصوف، دط، الهيئة العامة السورية للكتاب، دت، ص 14.
- ⁴- وفيق سلطين، المرجع نفسه، ص 16.
- ⁵- ينظر: خالد بلقاسم، أدونيس والخطاب الصوفي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، 2000، ص 57.
- ⁶- صقر أبو فخر، حوار مع أدونيس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2000، ص 51.
- ⁷- ينظر: عمر أزراج، أحاديث الفكر والأدب، دار البعث للطباعة والنشر، ط1، قسنطينة، الجزائر، 1984، ص 52.
- ⁸- أدونيس، الصوفية والسورالية، ط1، بيروت، لبنان، 1992، ص 57-58.
- ⁹- أدونيس، سياسة الشعر، دار الآداب، ط2، بيروت، لبنان، 1996، ص 175.
- ¹⁰- صقر أبو فخر، حوار مع أدونيس، الطفولة، الشعر والمنفى، ص 178.
- ¹¹- إلياس خوري، دراسات في نقد الشعر، دار ابن رشد، ط1، بيروت، لبنان، 1979، ص 25.
- ¹²- أدونيس، أوراق في الريح صياغة نهائية، طبعة جديدة، بيروت، دار الآداب، 1988، ص 38.
- ¹³- المصدر نفسه، ص 39.
- ¹⁴- أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ص 31.

- ¹⁵- ينظر: إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف، ط1، مصر، دار الأمين، 1999، ص262.
- ¹⁶- أدونيس، أغاني مهيار الدمشقي، طبعة جديدة خاصة، سوريا، بدايات للطباعة والنشر، 2006، ص158.
- ¹⁷- أدونيس، المطابقات والأوائل، طبعة جديدة، بيروت، دار الآداب، 1988، ص131.
- ¹⁸- أدونيس، أغاني مهيار الدمشقي، ص ص188-189.
- ¹⁹- أدونيس، كتاب التحولات والمجرة في أقاليم الليل والنهار، دار الآداب، طبعة جديدة، لبنان، 1988، ص44.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثاني، تح: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان دت.
2. أدونيس، الصوفية والسريالية، ط1، بيروت، لبنان، 1992.
3. أدونيس، سياسة الشعر، دار الآداب، ط2، بيروت، لبنان، 1996.
4. أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ط1، دار العودة، بيروت، لبنان، 1980.
5. أدونيس، أوراق في الريح، صياغة نهائية، طبعة جديدة، بيروت، دار الآداب، 1988.
6. أدونيس، أغاني مهيار الدمشقي، طبعة جديدة خاصة، سوريا، بدايات للطباعة والنشر، 2006.
7. أدونيس، المطابقات والأوائل، طبعة جديدة، بيروت، دار الآداب، 1988.
8. أدونيس، كتاب التحولات والمجرة في أقاليم الليل والنهار، دار الآداب، طبعة جديدة، لبنان، 1988.
9. إلياس خوري، دراسات في نقد الشعر، دار ابن رشد، ط1، بيروت، لبنان، 1979.
10. إبراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف، ط1، مصر، دار الأمين، 1999.
11. وفيق سلطين، الشعر والتصوف، دط، الهيئة العامة السورية للكتاب، دت.
12. صقر أبو فخر، حوار مع أدونيس، الطفولة، الشعر، المنفى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2000.
13. عبد الحميد جیده، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، ط1، بيروت، لبنان، 1980.
14. عمر أزراج، أحاديث الفكر والأدب، دار البعث للطباعة والنشر، ط1، قسنطينة، الجزائر، 1984.
15. خالد بلقاسم، أدونيس والخطاب الصوفي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر، 2000.